قسم العلوم الإنسانية جامعة محمد العربي بن مهيدي أم البواقي

السنة الأولى ماستر تاريخ مقيـــاس : التاريخ السياسي للأندلس

المحاضرة الثانية : الأوضاع السياسية في الأندلس قبل الفتح الإسلامي.

(جدلية التفكك الداخلي وأزمة الشرعية)

مقدمة المحاضرة:

"أعزائي الطلبة، في محاضرتنا السابقة، عرجنا على الجغرافية التاريخية للأندلس، وعرفنا أن الأرض هي مسرح التاريخ. اليوم، سنفتح الستار عن المسرح الذي جرت عليه أحداث الفتح، ألا وهو **مملكة القوط الغربيين** .**(Visigoths)** الخطأ الشائع في الدراسات التقليدية هو تصوير الفتح الإسلامي كعملية عسكرية محضة واجهت دولة قوية، لكن الحقيقة التاريخية، عند تفكيك البنية السياسية للقوط، تكشف لنا أن الدولة كانت تعيش "موتاً سريرياً" قبل وصول طارق بن زياد.

الإشكالية التي سنعالجها اليوم :كيف تحول النظام السياسي القوطي، الذي ورث التقاليد الرومانية العريقة، إلى هيكل هش تنهشه الصراعات الداخلية؟ وهل كان سقوط الأندلس **هزيمة عسكرية** أم **انهياراً سياسياً** استغله المسلمون؟"

المحور الأول: تشريح البنية السياسية للدولة القوطية(Visigothic Kingdom)

عنوان فرعي: "من الملكية العسكرية إلى الثيوقراطية الأرستقراطية"

في هذا المحور، سنفكك "المثلث السلطوي" الذي حكم الأندلس قبل الفتح :**(الملك - النبلاء – الكنيسة)**.

1. إشكالية "المرض القوطي:(Morbus Gothicus) "

هذا مصطلح تاريخي دقيق يجب إدراكه

- **الشرح :**اعتاد المؤرخون المعاصرون (مثل إيسيدور الإشبيلي) وصف حالة الاغتيالات السياسية المتكررة والانقلابات بـ "المرض القوطي."
- **التحليل المؤسساتي:**
  - القوط لم ينجحوا في ترسيخ "مبدأ الوراثة المستقر .(Primogeniture) " الملك لم يكن "ظلاً لله في الأرض" كما في المفهوم البيزنطي أو "خليفة" كما في الإسلام، بل كان **(Primus inter pares)**أي "الأول بين متساوين."
  - النبلاء (Magnates) كانوا يرون أن الملك هو "موظف سامٍ" يتم اختياره لخدمة مصالحهم، فإذا حاد عنها، تم عزله أو قتله.

2. مأسسة السلطة: "مجامع طليطلة (Councils of Toledo) "كبرلمان:

هنا لب المحور. الدولة كانت تدار عبر هذه المجامع.

- **المجمع الرابع (633م) :**هو الأخطر، لأنه قنن "آلية الانتخاب". نص على أن اختيار الملك يتم باتفاق الأساقفة والنبلاء."Palatines"
- **التحالف الكنسي-الأرستقراطي :**الكنيسة الكاثوليكية (بعد تحول القوط من الآريوسية إلى الكاثوليكية عام 589م) أصبحت هي **المانح للشرعية**.
  - **طقس "المسحة المقدسة :(Unction) "**الملك لا يصبح ملكاً إلا إذا باركته الكنيسة. هذا منح الأساقفة سلطة هائلة توازي سلطة الملك، مما خلق ازدواجية في القرار السياسي.
- **النتيجة :**عشية الفتح، كان قرار الحرب والسلم والدفاع مشتتاً بين القصر الملكي وبين الكاتدرائية.

3. بنية "البلاط الملكي:(Officium Palatinum) "

يجب توضيح الهيكل الإداري للطلاب ليفهموا كيف تسرب الضعف:

- **مجلس البلاط :(Aula Regia)** يتكون من كبار القادة والوزراء. هؤلاء كانوا غالباً أقوياء جداً لدرجة أن الملك لا يستطيع محاسبتهم.
- **حكام الأقاليم :(Duces)** الأندلس كانت مقسمة إلى دوقيات (مثل دوقية "بيتيكا" التي كان يحكمها لذريق). الدوق كان يتصرف كملك صغير في إقليمه، يملك جيشه الخاص، ويجمع الضرائب لنفسه أحياناً.
  - **تطبيق على الحدث :**هذا يفسر كيف استطاع "لذريق" (وهو دوق) أن يتحدى أبناء الملك الشرعي ويسيطر على العاصمة. الدولة كانت "فيدرالية مفككة" وليست مركزية صارمة.

4. التشريع والعدالة: "مدونة الأحكام:(Liber Iudiciorum) "

- رغم محاولة الملك "رِيكِيسوِنت" توحيد القانون بين القوط (الحكام) والرومان (المحكومين) في هذه المدونة، إلا أن **التطبيق كان طبقياً**.
- **قانون "الولاء الشخصي :(Fidelis)** "العلاقة بين الملك وقادته لم تكن علاقة مؤسساتية (دولة وموظف)، بل علاقة "يمين ولاء" شخصي. بمجرد موت الملك، يتحلل القادة من يمينهم.
  - **أهمية النقطة :**عندما قُتل لذريق في معركة وادي لكة، انفرط عقد الجيش فوراً، لأن الرابطة كانت شخصية وليست وطنية.

5. الأزمة العسكرية: قانون التجنيد:(Law of Wamba)

- حاول الملك "وامبا" فرض قانون يلزم النبلاء بإحضار نسبة من أتباعهم للجيش عند الغزو.
- **دلالة القانون :**صدور هذا القانون وتشديد العقوبات فيه (الجلد وحلق الرأس) يدل على أن النبلاء كانوا **يتهربون من الخدمة العسكرية**.

- **الوضع عشية الفتح :**الجيش الذي واجهه طارق بن زياد كان جيشاً من "المسخّرين" (المجبرين) ومن نبلاء يقاتلون بلا عقيدة، بعضهم كان يتمنى هزيمة لذريق ليتخلص منه.

المحور الثاني (تفصيلي): الجغرافية السياسية للأزمة: صراع الأقاليم وانشطار السيادة

عنوان فرعي: "من الوحدة الهشة إلى الحرب الأهلية المفتوحة (710-711م)"

في هذا المحور، سنقوم بتفكيك الخارطة السياسية للأندلس عشية نزول طارق بن زياد، لإثبات أن الفتح الإسلامي حدث في لحظة "فراغ سياسي" قاتلة.

1. جذور الانقلاب: "مشكلة الوراثة المستحيلة"

- **السياق :**وفاة الملك غيطشة (Witiza) سنة 710م (أو أواخر 91هـ).
- **الأزمة الدستورية :**حاول غيطشة قبل وفاته استباق "مجلس الانتخاب" وفرض ابنه "أخيلا (Achila II) "شريكاً في الحكم لضمان العرش.
- **رد فعل النبلاء :(Seniores)** اعتبر كبار القادة (خاصة في الجنوب والعاصمة طليطلة) هذا التصرف "خرقاً للتقاليد القوطية"، وقاموا -بدعم من تيار داخل الكنيسة- بتنصيب **"لذريق (Roderic) "**ملكاً.
  - **من هو لذريق؟** هو دوق مقاطعة "بيتيكا - Baetica) "منطقة قرطبة والجنوب)، يمثل "الجناح العسكري" المتشدد داخل الدولة، وكان يرى أن "أبناء غيطشة" ضعفاء لا يصلحون للحكم.

2. الانشطار الجغرافي: دولتان في دولة واحدة

هذه النقطة جوهرية لطلاب الماستر، ويجب تدعيمها بالدليل الأثري Numismatics) -علم العملات).

- **الواقع الميداني :**انقسمت المملكة القوطية فعلياً إلى شطرين متحاربين:

1. **دولة الجنوب والوسط (تحت حكم لذريق) :**عاصمتها طليطلة، وتسيطر على قرطبة وإشبيلية ومضيق جبل طارق. (تمتلك الشرعية العسكرية).
2. **دولة الشمال الشرقي (تحت حكم أخيلا) :**تشمل مقاطعة "طراكونة " (Tarraconensis)وجزءاً من "سبتيمانيا" (جنوب فرنسا حالياً). (تمتلك الشرعية الوراثية).

- **الدليل التاريخي (للنقاش)" :**لقد عثر علماء الآثار على عملات مسكوكة باسم الملك (أخيلا) في مناطق الشمال الشرقي تعود لنفس فترة حكم لذريق، مما يثبت أنه كان ملكاً فعلياً يمارس السيادة، ولم يكن مجرد متمرد، وهذا يؤكد حالة الانقسام السيادي".

3. الاستنزاف العسكري: "حرب البشكنس(The Basque Revolt) "

- بينما كان لذريق يحاول تثبيت حكمه في طليطلة، اندلعت ثورة شرسة في أقصى الشمال (إقليم الباسك/بمبلونة).
- **التحليل الاستراتيجي :**اضطر لذريق لتحريك جيشه الرئيسي (Comitatus) نحو الشمال لإخماد التمرد.
- **لحظة الصفر :**تزامن نزول طارق بن زياد في الجنوب (جبل طارق) مع وجود لذريق وجيش النخبة في أقصى الشمال. هذا **"الفراغ العسكري في الجنوب "**لم يكن صدفة، بل ربما كان بتنسيق استخباراتي دقيق بين "يوليان" والمسلمين.

4. "يوليان :(Julian) "رجل المفتاح واللغز الجيوسياسي

يجب تجاوز "القصة الرومانسية" (شرف الابنة) إلى التحليل السياسي الواقعي لدور حاكم سبتة.

- **موقعه القانوني :**هل كان حاكماً بيزنطياً (Exarch) يتبع القسطنطينية؟ أم حاكماً قوطياً؟ أم أميراً بربرياً مسيحياً (من قبيلة غمارة)؟

- *الرأي الراجح أكاديمياً* :كان حاكماً شبه مستقل لسبتة، تربطه ولاءات بأسرة الملك السابق "غيطشة."

- **الدور اللوجستي** :يوليان لم يقدم مجرد "نصيحة"، بل قدم:

1. **الأسطول** :القوط لم يملكوا أسطولاً بحرياً قوياً، والمسلمون لم يكونوا يملكون سفناً كافية للعبور الكبير. سفن يوليان التجارية هي التي نقلت جيش طارق تحت غطاء "حركة تجارية عادية" لعدم إثارة الشكوك.
2. **المعلومات** :كشف نقاط ضعف الحاميات القوطية في الجنوب.

5. طبيعة التحالف: "نظرية الارتزاق(Mercenary Theory) "

- هذا طرح مهم جداً لطلاب الدراسات العليا لتفسير "الخيانة."
- **الفكرة** :حزب "أبناء غيطشة" ويوليان لم ينظروا للمسلمين كـ "فاتحين" بدين جديد ودولة جديدة، بل نظروا إليهم كـ **"قوات مرتزقة "**(على غرار ما كان يفعله البيزنطيون).
- **سوء التقدير القاتل** :كانت الخطة: "نستخدم العرب لإسقاط لذريق، نعطيهم الغنائم، ثم يعودون إلى إفريقيا ونستعيد نحن العرش". لكنهم فوجئوا بأن طارق وموسى بن نصير جاءا بمشروع "استقرار وضم" لا مجرد غارة.

المحور الثالث: البنية الاجتماعية والدينية وأزمة الولاء السياسي

عنوان فرعي: "مجتمع الكراهية: حينما يصبح الفاتح منقذاً"

في هذا المحور، سنقوم بتفكيك المجتمع القوطي لنثبت أن الدولة سقطت اجتماعياً قبل أن تسقط عسكرياً.

1. المسألة اليهودية: من الاضطهاد إلى "التعاون الاستراتيجي"

- **السياق التاريخي** :كان اليهود يشكلون جالية كبيرة وناشطة اقتصادياً في المدن الكبرى (إشبيلية، طليطلة، ماردة).

- **التحول الجذري (589م :(**بعد تحول الملك ريكارد (Reccared) من المذهب الآريوسي (المتسامح نسبياً) إلى الكاثوليكية، بدأت مرحلة "الأحادية الدينية."
- **التشريع القمعي:(Legislative Oppression)**
  - **مجمع طليطلة الثاني عشر (681م :(**أصدر الملك "إرفيج" 28 قانوناً ضد اليهود، منها منعهم من ممارسة شعائرهم ومصادرة ممتلكاتهم.
  - **مجمع طليطلة السابع عشر (694م) - القاصمة :**اتُهم اليهود بالتآمر مع "يهود شمال إفريقيا" (وربما المسلمين) لقلب نظام الحكم. النتيجة: صدر قرار بـ **استرقاق جميع اليهود،** وسبي نسائهم وأطفالهم، ومصادرة كل أموالهم.
- **النتيجة الجيوسياسية :**تحول اليهود إلى "طابور خامس (Fifth Column) " ينتظر أي قوة خارجية للخلاص. المصادر التاريخية (مثل *أخبار مجموعة* (تشير بوضوح إلى أن المسلمين كانوا كلما فتحوا مدينة، تركوها في حماية حامية صغيرة من المسلمين ومعهم **كتيبة من اليهود،** مما سمح للجيش الإسلامي بمواصلة الزحف دون استنزاف قواته في الحراسة.

2. مأساة الأقنان والعبيد:(Serfdom & Slavery)

- **التركيبة الطبقية :**المجتمع القوطي كان هرمياً بامتياز:
  - **النبلاء :(Optimates/Seniores)** يملكون الأرض والسلطة.
  - **الأحرار الصغار :**طبقة متآكلة بسبب الضرائب.
  - **الأقنان والعبيد :(Servi)** وهم السواد الأعظم من السكان (من أصول رومانية إيبيرية).

- **قانون "العبيد الآبقين :"**تشير مدونة القوط (Liber Iudiciorum) إلى تفشي ظاهرة "هروب العبيد" بشكل جماعي، مما اضطر الدولة لتشريع عقوبات وحشية (الكي بالنار، البتر).
- **أثر ذلك على الفتح:**
  - الجيوش القوطية كانت تعتمد على تجنيد هؤلاء الفلاحين والعبيد قسراً.
  - في معركة وادي لكة، وبمجرد أن لاحت بوادر هزيمة لذريق، فرّ هؤلاء الجنود أو استسلموا، لأنهم **لم يملكوا عقيدة قتالية** ولا ولاءً لدولة تستعبدهم. بالنسبة لهم، "تغيير السيد" قد يكون أفضل من بقاء السيد الحالي.

3. الكوارث الطبيعية والأزمة الديموغرافية (707-710م):

- لا يمكن إغفال العامل البيئي/الاقتصادي.
- شهدت سنوات (89-91هـ) موجة قاسية من **المجاعة والطاعون** ضربت شبه الجزيرة الإيبيرية.
- **التحليل:**
  - هذه الكوارث أدت إلى **تراجع ديموغرافي** هائل، وإفلاس صغار الفلاحين الذين باعوا أنفسهم كعبيد للنبلاء من أجل الطعام.
  - الدولة كانت مفلسة وغير قادرة على دفع رواتب الجند أو تجهيز الجيش (وهذا يفسر سرعة الانهيار).
  - الشعب كان منهكاً نفسياً وجسدياً، ورأى في النظام القائم "لعنة من الله"، مما سهّل تقبل الحكم الجديد الذي وعد بالعدالة وتخفيف الضرائب.

المحور الرابع: الجيوسياسية للمضيق ودور العامل الخارجي

عنوان فرعي: "لغز يوليان: بين الخيانة الوطنية والبراغماتية السياسية"

في هذا المحور، سنناقش كيف تحولت مدينة **سبتة (Septem)** وحاكمها من "خط الدفاع الأول" عن المسيحية اللاتينية إلى "جسر عبور" للإسلام، وذلك عبر تفكيك شخصية "يوليان" ودوافعه الحقيقية.

1. الأهمية الاستراتيجية لسبتة:(The Strategic Imperative)

- **الموقع :**سبتة لم تكن مجرد مدينة، بل كانت **"قفل البحر** ."من يسيطر عليها يتحكم في حركة المرور بين العدوتين.
- **الوضع القانوني :**كانت سبتة تتمتع بوضع خاص.(Enclave)
  - هل كانت تابعة للبيزنطيين (بقايا الروم)؟
  - أم تابعة للقوط (امتداد لمملكة طليطلة)؟
  - **التحليل :**الأرجح أكاديمياً أنها كانت تابعة اسمياً للقوط، لكن حاكمها "يوليان" كان يمتلك استقلالاً ذاتياً واسعاً، وكان يرتبط بعلاقات ولاء شخصية مع **الملك السابق غيطشة(Witiza)** ، وليس مع الدولة ككيان مجرد.

2. تفكيك "أسطورة يوليان:(Historiographical Debate) "

هنا يجب تدريب الطلاب على "نقد الرواية التاريخية."

- **الرواية الأدبية (الرومانسية) :**المصادر (مثل ابن عبد الحكم، وبعض الحوليات الإسبانية المتأخرة) تركز على قصة "اغتصاب لذريق لابنة يوليان (فلورياندا)"، وتجعل الانتقام للشرف هو المحرك الوحيد.
- **النقد التاريخي (ما يجب أن يتبناه الطالب):**
  - القصص المتعلقة بـ "شرف النساء" تتكرر كثيراً في التاريخ لتفسير سقوط الدول (مثل قصة لوكريتيا وسقوط الملكية الرومانية).

- **الدافع الحقيقي :(Realpolitik)** يوليان كان سياسياً محنكاً. تحالفه مع طارق بن زياد وموسى بن نصير كان **"صفقة سياسية "**تهدف إلى:

1. حماية مدينته (سبتة) من الزحف الإسلامي الحتمي (سياسة المهادنة).
2. دعم حلفائه (أبناء غيطشة) لاستعادة العرش في طليطلة، مما يضمن له نفوذاً أكبر في البلاط الملكي الجديد.

3. الدعم اللوجستي والاستخباراتي (The Logistics of Invasion):

يجب أن يُفهم أن "الشجاعة وحدها لا تكفي لعبور البحر". الجيش الإسلامي كان برياً بامتياز، فكيف عبر؟

- **أسطول العبور :**المسلمون لم يمتلكوا أسطولاً حربياً جاهزاً في المغرب. يوليان هو من وفر **سفن النقل التجارية** (Merchant Vessels)لنقل الجنود على دفعات (أفواج ليلية) لتمويه الحركة، وكأنها سفن تجارية عادية لا تثير ريبة حامية الضفة الأخرى.
- **المعلومات الاستخباراتية:(Intelligence)**

- يوليان نصح طارق بن زياد بعدم النزول في "الجزيرة الخضراء " (Algeciras)لأنها محصنة وبها حامية قوية.
- البديل: دله على **"جبل كالبي- (Mons Calpe) "**الذي سمي لاحقاً جبل طارق- لأنه منطقة وعرة وغير مراقبة جيداً، مما سمح بإنشاء "رأس جسر (Bridgehead) "آمن للجيش قبل أن يكتشفه القوط.

4. نظرية "المرتزقة:(The Mercenary Miscalculation) "

- هذه نقطة جوهرية في تفسير "لماذا ساعد يوليان المسلمين؟."

- في العرف السياسي لذلك العصر، كان استئجار "البرابرة" (بالمفهوم الروماني) لحسم صراعات داخلية أمراً شائعاً.
- **الفرضية :**يوليان وحزب "أبناء غيطشة" اعتقدوا أن العرب والبربر (المسلمين) مجرد **"قوة مرتزقة "**سيقومون بهزيمة لذريق، يجمعون الغنائم، ثم يعودون إلى إفريقيا.
- **المفاجأة الاستراتيجية :**لم يدركوا أن هؤلاء يحملون "عقيدة نشر الدين " (Jihad)ومشروع بناء دولة، وليسوا مجرد غزاة طامعين في الذهب. عندما أدرك يوليان ذلك، كان قد فات الأوان.(The point of no return)

خاتمة:

بناءً على ما سبق، نخلص إلى النتائج التالية:

1. **حتمية السقوط :**لم يسقط طارق بن زياد دولة قوية، بل ركل باباً متآكلاً لانهيار بناء كان آيلاً للسقوط بفعل عوامل التعرية السياسية والاجتماعية.
2. **طبيعة المعركة :**معركة وادي لكة (92هـ) لم تكن مجرد مواجهة بين جيشين، بل كانت إعلاناً عن نهاية نظام سياسي فقد شرعيته، حيث ساهم "الحياد السلبي" للشعب و"تواطؤ" الخصوم السياسيين (أبناء غيطشة) في حسم النتيجة لصالح المسلمين.
3. **درس التاريخ :**يعلمنا سقوط الأندلس القوطية أن قوة الدول لا تقاس فقط بعدد جنودها أو حصانة قلاعها، بل بمدى تماسك جبهتها الداخلية وعدالة نظامها الاجتماعي.

قائمة المصادر والمراجع (وفق نظام شيكاغو)

أولاً: المصادر الأولية(Primary Sources)

1. **ابن عبد الحكم، أبو القاسم عبد الرحمن** *فتوح مصر والمغرب* .تحقيق تشارلز توري. (ليدن: مطبعة بريل، 1920).
2. **ابن القوطية، أبو بكر محمد بن عمر** *تاريخ افتتاح الأندلس* .تحقيق إبراهيم الأبياري. (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1989).
3. **مجهول المؤلف** *أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها* .تحقيق إبراهيم الأبياري. (القاهرة: دار الكتاب المصري، 1981).
4. **المقري، أحمد بن محمد التلمساني** *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب* . تحقيق إحسان عباس. (بيروت: دار صادر، 1968)، المجلد الأول.

ثانياً: المراجع العربية والمعربة(Secondary References)

5. **عنان، محمد عبد الله** *دولة الإسلام في الأندلس: من الفتح إلى بداية عهد الناصر* .)القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997).
6. **مؤنس، حسين** *فجر الأندلس: دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية*) .بيروت: دار المناهل، 2002).
7. **بروفنسال، ليفي** *تاريخ إسبانيا الإسلامية* .ترجمة علي أدهم. (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، 2000).

الهوامش والإحالات(Notes)

[1]محمد عبد الله عنان، *دولة الإسلام في الأندلس: من الفتح إلى بداية عهد الناصر*)القاهرة: مكتبة الخانجي، 1997)، 28.

[2] حسين مؤنس، *فجر الأندلس*)بيروت: دار المناهل، 2002)، 44.

[3] مجهول المؤلف، *أخبار مجموعة في فتح الأندلس*، تحقيق إبراهيم الأبياري (القاهرة: دار الكتاب المصري، 1981)، 12.

[4] عنان، *دولة الإسلام في الأندلس*، 35.

[5] أحمد بن محمد المقري، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، تحقيق إحسان عباس، مج 1 (بيروت: دار صادر، 1968)، 235.

[6] مؤنس، *فجر الأندلس*، 51.

[7] أبو بكر محمد بن عمر ابن القوطية، *تاريخ افتتاح الأندلس*، تحقيق إبراهيم الأبياري (بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1989)، 32.

[8] ابن عبد الحكم، *فتوح مصر والمغرب*، تحقيق تشارلز توري (ليدن: مطبعة بريل، 1920)، 206.